والباقى على الله

قدرت أن تتخلص من حياتها ، وفكرت وقدرت
ودبرت ثم نامت .
والعبد فى التفكير والرب فى التدبير . .

الجحر الذى كان الأسطى فهمى يسميه شقته كان دهليزاً من دهاليز قبور الفراعنة ، فأنت إذا عبرت عتبة المنزل رقم ٣ شارع العسال وجدت نفسك فى ظلام دامس ، لا تدرى لماذا ترفض أشعة الشمس دخول حوش البيت العتيق ، عليك أن تتحسس طريقك بيديك ، على يمينك السلم الصاعد وله درابزين هالك ومغطى بالتراب . لا بأس ، فإن سكان هذا البيت لا يحسون بالتراب ولايعدونه قذارة . . إنه جزء من الحياة نفسها ، مثله عندهم مثل الذباب جزء من الحياة لا يمكن تصورها بدونه .

نحن لن نصعد السلالم لأن الأسطى (فهمى) ، وهو رئيس عمال فى « المطابع العامة » ويسكن فى دهليز تحت هذا البيت ، لقد أجَّره من ثلاثين سنة عندما تزوج لطيفة ابنة صديقه رئيس العمال قبله ، كان أجرُه إذ ذاك ثمانية جنيهات ، لقد ارتفع إلى ٨٥ جنيهاً بالعلاوات ، ومكاسب العمال ، التى توالت عليه كالمطر خلال السنوات الأخيرة ، هذا غير أجر « الوقت الإضافى » والمنح والحوافز التى تقفز بالدخل أحياناً إلى الضعف ، ولكن بيت الأسطى فهمى ظل على ما هو عليه ، فى كل التحولات التى جرت على الدنيا خلال هذه السنوات الطويلة ، لم يدخل على تكوين هذا البيت إلا عنصران : بابور الجاز اختفى وحل محله فرن بوتاجاز من أرخص صنف ، وجهاز تليفزيون ، والباقى ظل كأنه محتويات قبر أمير دفن بكل

حاجاته وأغلق عليه القبر إلى يوم النشور .

* * *

والأسطى فهمى رجل طيب جدًّا ، بتعبير أدق إنه – مثل معظم أمثاله من العمال – يقف تطورهم العقلى عند المراهقة . فوق ما تعلمه من أبيه لم يتعلم شيئاً ، ولاهو محتاج إلى أن يتعلم شيئاً . . إنه رجل ذو شنب متزوج وله أولاد . وعامل كسّيب . وبعد التأمينات أصبح موظف حكومة له درجة وكادر ومعاش وإجازات من كل نوع . بالنسبة لرجل كهذا لا حاجة إلى تفكير ، وحياته تسترها الحكمة المحنطة التى ورثها عن أبيه ضمن ماورث من ثروة الأمثال والحكم التى تسير عليها حياته ، وهذه الحكمة تقول : أنا عملت ما علىّ والباقى على ربنا بقى ، والذى يعمله قليل جدًّا ودائماً . ولهذا فإن معظم الأشياء تبقى على الله ، وسواء تمت أم لم تتم فقد خرجت عن مسئولية الأسطى فهمى ، وليس من حقه – كما قيل له – أن يتدخل فى إرادة الله ، أستغفر الله العظيم .

على هذه القاعدة سارت حياته : تزوج وأنجب وأرسل أولاده إلى المدارس وزوج واحدة من بناته ، وعمل اثنان من أولاده عندما كبرا معه فى المطبعة ، وسار كل شىء تماما .

الأسطى فهمى عمل ما عليه والباقى على الله و« سبحانه » قادر على كل شىء .

* * *

ولكن هذا لم يكن رأى الست لطيفة زوجته . . إنها مثل غيرها من ربات البيوت من بنات طبقتها حاملة المسئولية الكبرى وعلى ظهرها يقوم كل شىء ، إنها العقل المفكر والرأس المدبر برغم صمتها وخضوعها ، وكلمة حاضر لا تزال ترددها من الصباح إلى المساء تخفف عنها نصف متاعبها ، تقول « حاضر » لكل ما يطلب

منها . ولكنها تنفذ ما فى رأسها ، ورأسها هو الوحيد الذى يمكن أن يسمى رأساً فى هذا البيت ، إن زوجها وابنيها ليست لهم رءوس فوق الأكتاف ، وإنها بلاليص خاوية ملأى بالأوهام والأمثال والحكم والمطامع والشهوات والجنس كلٌ منهم يعمل ما عليه والباقى على ربنا .

الست لطيفة تقول إن كُلاً منهم يعمل قليلاً جدًّا والباقى عليها هى . والمشكلة الرئيسية فى حياة هذه الأسرة هى مشكلة حماتها الست نفوسة التى لا تريد أن تموت ، إنها الآن فى الثمانين من العمر ، وإذا استمرت الأمور على هذا المنوال فستعيش قطعاً ثمانين أخرى ، كلنا سنموت ونصبح تراباً إلا هذه الكركوبة .

إنها تحتل أحسن جزء فى هذا القبر الفرعونى ، إنه دهليز كما قلنا ، ولكن الضوء يدخله لأنه يدور حول المنور حقًّا ، إنه فى قاع البيت ولكن النور يدخله ، وفى النهار تستطيع أن تستغنى عن النور الكهربائى ، ولكن لا غنى عنه من الثالثة بعد الظهر صيفاً وشتاءً ، لأن الشمس تجمع أطراف أشعتها وتمضى بعد صلاة الظهر .

عندما تدخل البيت ، الدهليز ، تجد نفسك فى رحبة مترين فى مترين ، هنا وضع الأسطى فهمى كنبته التى يجلس عليها وحده أو مع ضيوفه ليشرب الشاى ، على يسار الداخل فى مواجهة الكنبة باب غرفة نومه مع حرمه المصون ، إنها غرفة واسعة مضيئة كل ما فيها عتيق كما قلنا . .

بعد الرحبة يمتد أمامك دهليز طوله نحو عشرة أمتار ، فى وسط الدهليز إلى اليسار باب يؤدى إلى المطبخ ودورة المياه والحمام ، كلها واسعة يدخلها النور ، فى نهاية الدهليز غرفتان واحدة منهما للعيال الذين لم يعودوا عيالا فهم على وشك الزواج ، والغرفة الأخرى هى أحسن غرف البيت : واسعة مضيئة ومريحة ، إنها مخدع الملكة فى القبر الفرعونى ، هنا تعيش الحاجة نفوسة التى ترفض أن تموت ،

إنها تشكو الأمراض من أربعين سنة ، ولكنها لن تموت ، إنها عذاب أهل البيت جميعاً من ابنها الطيب إلى زوجته وولديه ، الوحيدة التى نجت من شرها هى سعاد بنت الأسطى فهمى التى رحمها الله وتزوجت وسكنت فى آخر الدنيا كما تقول ، فى إمبابة .

الحاجة نفوسة كغيرها من نساء عصر استعباد الحريم ، تنتقم من الدنيا ومن فيها ، لقد تزوجت فى العشرين من عمرها . اختارتها حماتها الحاجة أنيسة لتكون أولا زوجة لابنها والد الأسطى فهمى ، ثم لتكون خادمة لها أخيراً ، عمرها كله كانت عبدة ذليلة لحماتها ، تحمل لها الطعام ، وتغسل لها رجليها ، وتتحمل بصبر شتائمها البلدية التى تشبه السهام المسمومة ، وظلت تقول : (حاضر) وتلعق بلسانها الهوان من على البلاط حتى توفيت حماتها ، وعندما زوجت ابنها فهمى اختارت له لطيفة الطيبة الأميرة لكى تسقيها كل كئوس الذل والهوان والعذاب التى شربتها هى ؛ إنها تناديها بنفس النداءات التى كانت تسمعها من حماتها : يابنت يالطيفة ! يا مقصوفة الرقبة ! يا سخامة ! ولاتصفها إلا بالأوصاف نفسها : إنها حمارة لا تفهم شيئاً : طور الله فى برسيمه ! وش الخراب وبوز النحس ! كل ما يؤلم ويجرح ويبكى ويسيل الدم . إنها تصر على أن تفتح فم المسكينة لطيفة لتصب فيه كئوس العلقم التى صبتها حموات مصر فى حلوق زوجات الأبناء ألوفاً بعد ألوف من السنين .

وهى تفتن فى التعذيب . إذا كان كل الأكل بامية فلابد من عبارة كل يوم بامية . ألا تعرفين أن تطبخى إلا البامية ! وإذا كان ملوخية فهناك دائما العبارة نفسها . وهناك الشاى صباحاً والشاى بعد الظهر والينسون مع الغروب ، وبعد أن تطمئن الست لطيفة وتدفأ فى فراشها بعد عذاب النهار يجىء الصوت الأجش الذى

لا يتعب ولا يضعف عبر عشرة أمتار الدهليز : والكراوية يا مقصوفة الرقبة ! والجنزبيل ياللى تعدمى عافيتك ! وهكذا . . وتنهض المسكينة لتعمل المطلوب وهى ترفع عينيها إلى السماء وتقول : ارحمنى بقى يارب ! ارحمنى كرامة لأم هاشم .

كل ذلك والأسطى فهمى يقول : معلهش يا لطيفة ! برضه دى أمى يا لطيفة استحملى يا لطيفة ! دى طاعة الوالدين ثواب يا لطيفة ! ويكون ردها : تقفل فمك وحياة أبيك ! ستظل تقول معلهش يا لطيفة ! استحملى يا لطيفة ! إلى أن يأتى يوم تكون لطيفة هذه تحت التراب . .

بعيد البشر يا لطيفة ! لا بركة لى إلا أنتِ يا لطيفة . . أنت ملاك من السماء يالطيفة .

* * *

وتعبت لطيفة من دور الملاك الذى هو من السماء ، وعادت بها الذاكرة إلى أيام كانت تفكر أفكار الأبالسة الهابطين من الجحيم . لم يكن لها من ذلك مفر . إن الحياة أصبحت لا تحتمل . وهذه المرأة لن تموت موتاً طبيعيًا أبداً . لابد أن تقصف رقبتها أو تفتح كرشها أو تكتم أنفاسها .

فى هذا كانت تفكر قبل عشرين سنة عندما كانت شابة صغيرة فى كيانها قوة وفى نفسها ثورة وفى رأسها جنون ، كانت معاملة هذه العجوز ترهق أعصابها ، وتجعلها تفكر فى أن تعمل أى شىء للتخلص من هذه الحياة ، فكرت فى أن تقتل نفسها ثم رأت أن الأفضل أن تقتل هذه الأفعى ، وفى حديث هامس بينها وبين قريبة لها فى مثل سنها قالت لها هذه :

– ولماذا تقتلين نفسك يا عبيطة ؟ أنت شابة وحلوة وأم أولاد ، فى حين أنها هى لا شىء .

إنها ثعبان كان لابد من كسر دماغه من زمن . أنا أعرف واحدة صاحبتى حطمت رأس الثعبان . . فالتفتت إليها باهتمام وقالت :

– أى ثعبان ؟

– حماتها . .

– وكيف حطمت رأس الثعبان . . ؟

– هذا سر أقوله لك ، لأنك امرأة ضعيفة خائفة من زوجك ومن حماتك . .

– إننى امرأة ضعيفة . . هذا صحيح . . ولكننى غير خائفة من زوجى أو من حماتى ، والحياة عندى لا تساوى شيئاً . . قولى لى الساعة أقفز من النافذة وستجدينى قد قفزت . كل شىء فى الدنيا أهون من الحياة مع هذه العقرب . .

– إذن فكرى أولا ثم قولى لى . .

– فكرت . .

– مستعدة لتحطيم رأس الحية ؟ . .

– مستعدة . .

– ولو قتلوك بعد ذلك ؟ . .

– ولو أحرقونى بالنار . . لا يهمنى شىء إذا رأيتها تحت التراب

– ولا تكشفين السر لأحد . .

– لن أكشفه لأحد ومقام النبى عليه الصلاة والسلام

سأقوله لك وأمرى لله . . أنت مسكينة معذبة ، وحرام أن أتركك فى هذا العذاب . . شوفى يا لطيفة يا أختى .

ثم مالت برأسها على أذنها وحكت لها حكاية « زر الصدف الجاوى » إنه عقار عادى يباع عند العطارين ، تشتريه النساء وتعجنه بزيت الصبار وتضعه على الرأس

المصاب بالقراع بعد حلق الرأس بالموسى . إنهن يضعن هذه العجينة شهراً كاملا على الرأس ، ثم يفك الرباط ويغسل الرأس ويحلى الشعر النابت وتكرر العملية ستة أشهر ، بعدها تصح فروة الرأس ويزول كل مرض ويخرج الشعر مثل الحرير . .

– ما دخل هذا بحماتى ؟ . .

– اصبرى علىّ . . زر الصدف الجاوى الجاف هذا إذا وضعت عليه بودرة رصاص وتوتيا زرقاء ووضعت على الخليط ماء وغليتيه حتى يتبخر الماء يتبقى عندك مسحوق رمادى . ملعقة واحدة منه تكفى قتل ثور . . ضعى هذه الملعقة فى مشروب حريف مثل الزنجبيل أو الخلنجان أو القرفة الجاوى إذا أكثرت السكر لا يحس أحد بطعمه . . إنه سم الحماوات . . تتناوله الواحدة منهن بالليل إذا كان عندها سعال شديد ، بعد نوبة سعال تعطينها هذا الترياق فتنام بعد عشر دقائق . . تنام إلى الأبد ، وليس فى الدنيا طبيب يستطيع كشف هذا السر . .

* * *

ووعت الدرس جيداً . .

وضعت فى دقة بالغة سم الحماوات ، ووضعت المسحوق الثمين فى زجاجة ، وأحكمت إقفالها وأخفتها حيث لا يعثر عليها الشيطان الأزرق . .

ولكن الشيطانة لم تصب بالسعال قط .

وشهراً بعد شهر نامت الحكاية ، ومضت السنوات . .

ولكنها تجددت الآن . . بعد خمس وعشرين سنة عندما كثرت إصابة الحماة بالسعال ، وأصبحت تطلب فى كل ليلة بدل الينسون والكراوية – الزنجبيل والقرفة الثقيلة والخلنجان . .

تجددت . . لأن أذى هذه المرأة جاوز كل حد . وانقطع كل أمل فى أن تموت

حتف أنفها فى فراشها . إنها تسعل حتى تزيح الجدران ، وتهتز وتنشج حتى يسمعها سابع جار ، ولكنها لا تموت ، لقد نسيها عزرائيل وانتهى الأمر ، لن تموت . . .

الأمر الممكن هو أن تموت هى : لطيفة ، ولكن هذا مستحيل . تلك هى أمنية العجوز ، لقد قالت ذلك وتمنته ألف مرة ، ودعت الله أن يقصف عمرها ، وأقسمت بكل الأولياء أنها ستروج ابنها بعد ذلك بنتاً مثل القمر مطيعة لها كأنها قطة صغيرة . .

وهذا لن يكون . .

وقبل أن تموت هى ستكون العجوز تحت التراب . وربما اكتشفوا أمرها ، لا يهم . المهم أن تعيش يوماً واحداً بعد تلك الحية الرقطاء . .

وخوفاً من أن يكون سم الحماوات الأول قد فسد وفقد مفعوله صنعت سماً طازجاً لكى يكون صاعقاً وانتظرت الليلة المناسبة : ليلة يكون زوجها فى نوبة الليل ويشتد السعال بالعجوز حتى تصطك الجدران وتطلب الزنجبيل أو الخلنجان . .

* * *

وحدث هذا ليلة أربعاء

كان الأسبوع كله أسبوع نوبة ليلية للزوج الطيب .

وكانت العجوز قد أصيبت ببرد وسعال من الطراز الممتاز . .

عز الطلب ! .

وفى الليلة الموعودة أعدت كل شىء . . قارورة السم الزعاف والزنجبيل والخلنجان والقرفة لتطلب الحاجة ما تريد . . إن لها على الأقل الحق فى أن تموت بالمشروب الذى تريده . .

وخرج الزوج . .

ونام الولدان . .

وانتصف الليل . .

وأخذت الحاجة تسعل وتسعل ، وجلست لطيفة فى فراشها كأنها قطة نافرة .

إنها تنتظر النداء المعروف يا مقصوفة الرقبة . . هاتى لى (جنزبيل) . .

وسعلت العجوز وارتج البيت ثم هدأ السعال . .

هذا عادى . .

وسعلت مرة ثانية . . وهدأت النوبة . .

عادى أيضاً . .

وسعلت الثالثة ثم الرابعة . . وهدأت . .

وتعبت لطيفة من الانتظار . . ونامت . .

وصاحت مفزعة . .

لقد طلع النهار وعاد زوجها وهاهو ذا يوقظها بصوته الأجش . .

ضاعت الفرصة . .

حتى سم الحماوات لا ينفع . .

ونهضت مسرعة إلى المطبخ وأخفت زجاجة السم . .

وأعدت الإفطار لزوجها . . وأفطر ونام . .

وصحا الأولاد وخرجوا . .

وجاءت الساعة العاشرة صباحاً ، وصحا الزوج وطلب القهوة وعندما أتته بالقهوة قال :

– ما للحاجة اليوم . . ليس من عادتها أن تتأخر فى النوم . .

– لقد سعلت طول الليل . .

وعندما صلى الظهر قال :

– مش معقول . . سأذهب لأرى الحاجة . .

وذهب ، وغاب دقائق ثم سمعت لطيفة صوته ينادى بنبرة فيها فزع ودموع :

– لطيفة . . لطيفة . .

وأسرعت لطيفة ووقفت بالباب . .

ونظر الأسطى فهمى إلى زوجته وقال وهو يتحسس أمه ويرفع جفنها وينظر فيه : الحاجة ماتت يا لطيفة ! . . أمى ماتت يا لطيفة ! . .

وانطلقت زغرودة غير مسموعة فى قلب لطيفة .

وانطلقت من حنجرتها صرخة عويل طولها أمتار . . .

وجرت إلى غرفتها لتلبس ثوباً أسود . .

وأغلقت الباب خلفها ، وضحكت كما لم تضحك منذ كانت طفلة . .

–كم أنت كريم يارب . . قادر وكريم يارب .

ألف حمد لك يارب على ضياع الفرصة . .

وانطلق النواح ، وتدافعت الجارات يشاركن فى عرس الموت ، شأنهن من آلاف السنين . .

رقم الإيداع		١٩٨٠/٤٢٥٦
الترقيم الدولى	٩٧٧-٧٣٣٧-٣٦-١	ISBN

١/٧٩/٢٨١

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)